

قراءة في كتاب قضايا علم الجمال السينمائي –
مدخل إلى سيميائية الفيلم لـ: يوري لوتمان

الدكتور: لعلى سعادة
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر - بسكرة

مقدمة:

تتناول هذه الورقة أهم الأفكار التي طرحها يوري لوتمان (الباحث الإستوني) في كتابه الشهير "قضايا علم الجمال السينمائي – مدخل إلى سيميائية الفيلم"، لإبراز علاقة السينما بالأدب، بالإضافة إلى أهم المصطلحات المستعملة في المجال السينمائي، وأكثرها فعالية.

والهدف من هذه القراءة هو التعرف على مختلف الآليات المساعدة على إدراك الأبعاد الفنية- الثقافية للسينما، وامتلاك القدرة على تأويل هذه الأبعاد المعقدة بتوظيف الآليات التحليلية التي تمكّن من القيام بفك الرموز الخاصة بالسّنن السينمائي الفني.

علاقة السينما بالأدب:

العلاقة بين السينما والأدب هي علاقة المنتج بالمستهلك؛ ذلك أن الأدب هو الذي يزود السينما بالمادة التي تشغل عليها، أو بالمادة التي تقتات منها، مع تكييف هذه المادة مع خصوصيات السينما ومتطلبات ميدانها ثم طرحها للتداول. ولا يخفى ما للسينما من دور في إرساء فالسينما من الفنون الأكثر انتشارا وجماهيرية في القرن العشرين بامتياز، تخاطبنا بأصوات بالغة الغموض والتعقيد، تصاحبها الرغبة الملحة في بناء نظرية عامة للبنى السردية تساعد على تحليل لغة الفيلم السينمائي وفهمها. ولا شك أن فهم هذه اللغة " السحرية، الميثولوجية يعتبر خطوة أولى نحو فهم الوظيفة الفنية والإيديولوجية للسينما." (1)

" إن الثقافة الإنسانية تخاطبنا بواسطة مجموعة من اللغات المختلفة، التي تنقل لنا معلومات معينة، صوتية أو مرئية أو ألسنية طبيعية. والسينما هي إحدى هذه اللغات، بل من أهمها وأكثرها فعالية: إنها ذات تأثير معقد." ()

عرض بعض أفكار ومصطلحات الكتاب:

تناول الكتاب مجموعة من المفاهيم النظرية، إذ طرحها من وجهة نظر سيميائيات الثقافة، تُمكن من إظهار السينما، بوصفها لغة خاصة، ذات قواعد فنية قابلة للتوصيف. ولعلّ من أهم المصطلحات التي يمكن الوقوف عندها في الكتاب نذكر: التركيب، التعقيد، الدلالة، المعلومات، الذهن، الثقافة، النص الفني، الموضوع الفني. التعقيد البصري، الوهم بالواقع/ الإمتلاك السيميوتقافي للعالم. "ويمكن النظر إلى هذه المفاهيم كونها مقولات نظرية تنظم السينما بوصفها نصا text بصريا خاضعا لمستويات تكوينية فنية يشكل الإنجاز التكاملي لمختلف عناصرها سيرورة الإبداع الفني، والذي يمكن من تصنيف الفيلم السينمائي ضمن جدول النصوص ذات الموضوع." (<https://diae.net/33223/>)

نصحب (يوري لوتمان) في رحلة قرائية لكتابه قصد تلمّس بعض ملامح اللغة السينمائية المسؤولة عن إنتاج الفيلم، وذلك بهدف استكشاف جو البنيات القواعدية- الفنية التي تقف وراء تشييد الأبعاد السيميوية- ثقافية للسينما." ()

السينما وعناصرها:

تمثّل السينما بعناصرها علامات سيميائية تخترن معلومات، ينتج عن تنوعها وتكثيفها الشديد من الفيلم السينمائي بنية ذات تنظيم معقد تجعل من هذه المعلومات، حسب (وينر wiener)، بنى ذهنية وانفعالية مسؤولة عن تأثيرات بالغة التعقيد يخضع لها المشاهد، " تتدرج بدءا من الانطباع البسيط الذي تتركه في خلايا ذاكرته وصولا إلى صقل شخصيته وتنقيتها" (الكتاب، ص 59). وهذا هو التأثير الخطير الذي تمارسه السينما على المتلقي الذي تأسره بعناصرها التي يجهل عنها الكثير، والتي عملت الأيادي المحترفة على إعدادها بطريقة فنية بديعة في المخابر المختصة في الشأن السينمائي، وتزداد فنياتها تطورا يوما بعد آخر.

بعض مصطلحات الكتاب:

لعل من أهم وأعدد المصطلحات في الشأن السمعي البصري ما يُعرف بـ:

أ. **التركيب Montage**: وهي عملية بالغة الدقة والخطورة في الآن نفسه، وهي التي يتم المراهنة عليها لإنجاح العمل السينمائي، وضمان انتشاره. ويعتمد الخبراء والمتخصصون إلى تركيب أحداث الفيلم وجزئياته في المختبرات/ الأستديوهات الخاصة بدقة متناهية تضمن التأثير على ذهنية المتلقي. إن المستهدف في العملية هو "حس الواقع عند المتفرج، الذي يصبح شاهداً ومشاركاً في الحدث المعروض على الشاشة مباشرة، وذلك بصورة انفعالية تحيل إلى تمثّل المشاهد للفيلم على أساس أنه حدث واقعي (خلق الوهم بالواقع) رغم إدراكه المسبق بلاواقعية الحدث الفيلمي. وهذا لا يعني القول بتبني الإجراء الآلي في عملية الموازنة بين الواقع والإعتماد الفني السينمائي لبنيات هذا الواقع، والتي ينتج عنها تولد الشعور بالتشابه مع الحياة، فـ" مجمل تاريخ السينما كفن هو في الحقيقة سلسلة متصلة من الإكتشافات، اكتشافات تسعى إلى حذف الآلية من كافة الجوانب التي تنتمي إلى حقل الأهداف الفنية" (ص 26) ()

ب. **التعقيد Complication**: يعتمد المختصون في الشأن السينمائي إلى تعقيد التقنيات والآليات قصد إظهار العملية بأنها بالغة التعقيد والصعوبة، وهذا من أجل ضمان ما يُعرف بالاحتكار أو فرض الهيمنة. ويتم التعقيد عن طريق أسر المتلقي بالمبالغة في استظهار الفنيات والتقنيات، لكي يحاول المتلقي ربط مسألة الوهم بالواقع وما يتعلق بها من قضايا مرتبطة بالتعقيد الفني السينمائي، وفي هذا الصدد يقول يوري لوتمان: "إن عالم السينما هو عالماً المرئي ذاته، لكن مضافاً إليه عنصر التجزئة (عدم الاستمرارية). عالم مقطّع إلى أجزاء متفرقة، يكتسب فيها كل منها بعض الاستقلالية) مما يتيح عدداً كبيراً من التآلفات والتركيبات لا نجدها في عالم الواقع): هكذا يصبح العالم الذي نطلق عليه اسم (العالم الفني المرئي). (ص 38). ()

" تقود هذه التجزئة الفنية إلى عالمين: عالم الحياة المرئي، وهو غير مجزأ ومستمر، وعالم الشاشة المرئي، وهو مجزأ ولا مستمر؛ وهو العالم الفني المرئي الذي يبتدئ فهمه انطلاقاً من تناول مسألة اللقطة السينمائية، حيث يغدو هذا العالم الواقعي – السينمائي مجموعة من اللقطات المقطّعة من الواقع في تنظيم فني يراعي خصوصية تحول الموضوع، المقطّع، من بنية (الواقع) إلى بنية (الفيلم)." ()

ج. **الدلالة Sémiotique**: يلتصق بهذا المصطلح مصطلح آخر ملازم له، وهو: اللقطة، وما تحتاج إليه من تركيب؛ ففي معالجتها معالجة لدلالة الفيلم التي أفرد لها لوتمان نوعين من الدلالات:

1- " دلالات مألوفة أو متوقعة لدى المشاهد، تفقد بسبب ذلك خاصيتها الأثيرة وهي حمل المعلومات، وتؤديها عناصر غير بارزة؛ توصف بكونها عادية ليس من وظيفتها خرق توقع المتلقي.

2- دلالات غير مألوفة، غير مرتقبة، تخرق مفهوم التوقع، وتؤديها عناصر بارزة ، ينسب إليها لوتمان حمل الخصائص والسمات الفيلمية الفنية. إلى جانب ذلك يدرج لوتمان إمكانية، بل ضرورة، الاعتبار التكاملي للفيلم بين كلا العنصرين؛ البارز وغير البارز، بالقول أن وجود العناصر البارزة يجعل من العناصر الغير بارزة عناصر فاعلة فنيا، وأن العكس صحيح. وأنه تبعا لميل المخرج؛ بين سينما" اصطلاحية" و سينما" واقعية"، يتحدد الاهتمام الخاص الذي يوليه لأحد هذين العنصرين، لكن- يؤكد- حذف أحد هذين النوعين يقود بالضرورة إلى خنق الفاعلية الجمالية للأخر(ص 52 / 51)".()

وفي الكتاب مصطلحات عدة قد لا يسع المجال لعرضها كلها في هذه الندوة، وقد تستكمل الدراسة عرضها في الشق الثاني للندوة. وشكرا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

للموضوع مراجع، منها:

1. يوري لوتمان، قضايا علم الجمال السينمائي مدخل إلى سيميائية الفيلم، تر نبيل الدبس، منشورات النادي السينمائي، دمشق، 1989،
2. ميشال بوتور، بحث في الرواية الجديدة، تر فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، ط بيروت باريس، 1986،
3. جون ريكاردو، قضايا الرواية الحديثة، تر صياح الجيهم، وزارة الثقافة، د. ط، دمشق، 1977،
4. جاك أومون وآخرون، جماليات الفيلم، تر: ماهر تريمش، ط1 ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث/ كلمة، أبو ظبي، 2011،

5. لوي دي جانيتي، فهم السينما- السينما والأدب، ترجمة جعفر علي، منشورات عيون، المغرب، 1993
- 6- Roland Barthes, Essais critiques, seuil, 1er édition, Paris, 1964,
- 7- Christian Metz, Essais sur la signification au cinéma. Paris, Klincksieck, 1983
- 8 . جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي وعمر الحلي، منشورات الاختلاف، ط، الجزائر، 2003،
- 9- MeikeBal, Narratologie- Essais sur la signification narrative dans quatre romans modernes, Hes Publishers, Utrecht ,1984,